مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد.6/ العـــدد1 (2022)، ص ص 319-329

الدور الجهادي لزاوية الصادق بلحاج في مقاومة الاستعمار الفرنسي في الأوراس (1844م-1859م)

The Jihad Role of Zawiya AL-Sadip Belhadj in Resisting French Colonialism in Aures (1844-1859)

ممدوح بومخيلة *
جامعة وهران 1 – أحمد بن بلة (الجزائر)
boumkhilamemdouh@gmail.com

تاريخ الاستلام: .19./..08./..2021 تاريخ القبول: .19/12/.2021

الملخص:

تتناول هذه الدراسة أحد أهم الزوايا الرحمانية في الأوراس ودورها في مقاومة الاستعمار الفرنسي ألا وهي زاوية الصادق بلحاج، فقد ساهمت في دعم مشروع الكفاح الوطني، وشاركت في عدة معارك مثل معركة مشونش عام 1844م ومعركة سريانة عام 1849م، كما ساهمت في حماية قائد المقاومة في الشرق الجزائري أحمد باي بعد انسحابه للأوراس وتحالفت مع خليفة الأمير عبد القادر محمد الصغير في عدة مناسبات ضد الاستعمار الفرنسي وأكثر من ذلك قادة ثورة الأوراس عام 1859م، ولهذا من واجبنا نحن كأبناء الشعب الجزائر بصفة عامة وكباحثين بصفة خاصة أن نبرز الدور الجهادي لمثل هذه الزوايا في الدفاع عن الوطن ومقاومة الاستعمار، فقد كانت هذه الزاوية نموذجا للجهاد والمقاومة الوطنية من أجل حرية البلاد وحرمة مقدساتها.

الكلمات المفتاحية: زاوية الصادق بلحاج.، منطقة الأوراس.، معركة مشونش 1844م.، معركة سريانة 1849م.، ثورة الصادق بلحاج 1859م.

Abstract:

This study deals with one of the most important corners of the Rahmaniyya in Aures and its role in resisting French colonialism, namely the Zawiya of Sadiq Belhadj. Indeed,it contributed to supporting the national struggle project, and participated in several battles, such as the Battle of Mashunish in 1844 AD and the Battle of Seriana in 1849 AD.Moreover, it contributed to protecting the resistance leader in the Algerian East, The Algerian Ahmed Bey after his withdrawal to the Aures and allied with the successor of Emir Abdelkader Mohamed Al-Saghir on several occasions against French colonialism. Morethan that, it leaded the Aures revolution in 1859 AD, and for this it is our duty as the sons of the Algerian people in general and as researchers in particular to highlight the jihadist role of such "Zawaya" in defending the homeland and resisting to colonialism, this "Zawiya" was a model for jihad and national resistance for the country's freedom and the protection of its sanctities.

Keywords: Zawiya of Sadiq Belhaj., Aures region., Battle of Mashunish 1844AD., Battle of Seriana 1849AD., Revolution of Sadiq Belhadj 1859AD.

*المؤلف المرسل: ممدوح بومخيلة.

مقدمة:

شكلت الزوايا الرحمانية في الأوراس دورا كبيرا في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وعاملا أساسيا لسلسلة من الانتفاضات ومن أبرز هذه الزوايا زاوية الصادق بلحاج الذي قدم لنا مثالا عن الصوفية المجاهدة الرافضة للاحتلال رفضا تاما، فقد دفع بنفسه وأبناءه وعشيرته وزاويته في سبيل تحرير المنطقة من الغزاة الفرنسيين.

الإشكالية: لعبت زاوية الصادق بلحاج في الأوراس دورا فعالا في التصدي للاستعمار الفرنسي، فكانت من أشد القلاع المدافعة عن الحضارة الإسلامية ومقومات الأمة الجزائرية بصفة عامة وسكان الأوراس بصفة خاصة، فا فيما يكمن الدور الجهادي لهذه الزاوية في مقاومة الاستعمار الفرنسي؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدنا على عدة عناصر لمعالجة هذا الموضوع أهمها:

_ لمحة تاريخية عن زاوية الصادق بلحاج.

_ إبراز أهم المعارك التي شاركت فيها هذه الزاوية في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

_ ثورة زاوية الصادق بلحاج بالأوراس (1858م-1859م).

1 _ لمحة تاريخية عن زاوية الصادق بلحاج:

1.1 _ الموقع الجغرافي لزاوية: تقع زاوية الصادق بلحاج في بلدة لقصر الواقعة على سفح جبل أحمر خدو في الجنوب الأوراس بمنطقة بلخناق وهي تنتمي إلى عرش أولاد أيوب، وتبعد عن مدينة بسكرة بحوالي 80 كلم (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 67، 69) حيث ساهمت الطبيعة الجغرافية لهذه الزاوية في ترسيخ المقاومة بالمنطقة والإصرار على الجهاد وطرد الاحتلال وتثبيت تعاليم الطريقة الرحمانية، فكان لحصانة موقعها الجغرافي دورا كبيرا في دفع مؤسسها إلى رفع راية الجهاد ضد المستعمر (أبو القاسم سعد الله، 1992، ص 155، 156) وقد وصف الجنرال سانت أرنو (Saint Arnaud) الموقع الجغرافي لزاوية في مرسلاته في 27 جوان 1850م بقوله **"إنها محاطة بالجبال الصخرية يبلغ ارتفاعها أكثر من 500م"** (يحي بوعزيز، 2009، ص 223، 225) وما يعبر عن موقعها الجغرافي الوعر عجز حملة الجنرال بودو (Budo) في جوان 1845م من فرض السيطرة التامة على جبل أحمر خدو، وحتى عندما كُلف العقيد هربيون (Herbion) بمهمة السيطرة على جبل أحمر خدو بما أوتي من عتاد وعدد إلا أنه عجز في تحقيق ذلك؛ فقد بقية هذه المنطقة عصية على المحتل نظرا لطبيعة موقعها الجغرافي ذات التضاريس الوعرة. (كحول عباس، 2012، ص 124)

2.1 _ التعريف بالزاوية: تُعد زاوية الصادق بلحاج من قلاع العلم والجهاد في الأوراس، أسسها الشيخ الصادق بلحاج مقدم الطريقة الرحمانية بأحمر خدو، وتُعرف بالزاوية لقصر نسبت للبلدة التي تأسست فيها وأثارها مازالت شاهدة، وهي تتواجد وسط بلدة لقصر بسفوح جبل أحمر خدو واد لقصر؛ فقد كانت هذه الزاوية تسدي تعليما عاليا في الشريعة والنحو وفي مبادئ علم الفلك والحساب والتوحيد والمنطق بغض النظر عن التعليم في القراءة والكتابة وحفظ القرآن (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 101، 358) ولم يمضي وقت طويل عن

تأسيسها حتى أصبحت قُبلة لطلاب العلم خاصة وأنها ذات نظام داخلي مجاني مما جعلها تعمر بنخبة من العلماء حافظي القرآن وشيوخ العلم أمثال: الشيخ ألجموعي خريج الجامع الأزهر، الشيخ محمود باردو ،الشيخ الصادق ماكمي، الشيخ الصادق بلحاج نفسه مؤسس هذه الزاوية وأبناءه على رأسهم الطاهر الذي كان يُلقب ببحر العلوم. (مؤيد صلاح، 2002، ص 418)

كان لشيوخ هذه الزاوية دورا كبيرا في تحويلها إلى قُبلة للطلاب من كل جذب وصوب من الأوراس والصحراء والتل حيث يحصلون فيها على التعليم بمراحله الثلاث خاصة الثانوي منها، كما أنها توفر الإيواء والطعام المجاني من خلال أوقافها ومساهمة أتباعها، وما يوفره عرش أولاد أيوب لها من منتجات يتم تخزينها في مخزن الزاوية (كحول عباس، 2012، ص 81) وإلى جانب ما تقوم به هذه الزاوية من المهام كانت رائدة في الجهاد في سبيل الله دفاعا عن الوطن بالمال والرجال وهذا ما عرضها للتخريب والدمار والحرق بعد ثورتها عامي (1858م-1859م) من طرف المستعمر الفرنسي(مؤيد صلاح، 2002، ص 279، 280) حيث استولى على جميع ممتلكاتها وسلط على شيخها الصادق بلحاج وأبناؤه السجن والنفي والتشريد داخل الوطن وخارجه، ولكن رغم ذلك فقد أعيد فتحها من قبل أبناؤه بعد إطلاق سراحهم بمنطقة تيبرماسين التي تبعد عن بلدة لقصر مكان الزاوية القديم ب 10 كلم من أجل مواصلة نهجها في تعليم القرآن والعلوم لسكان الأوراس. (جمعية أول نوفمبر، د.س، ص 189)

3.1 _ نبذة عن حياة مؤسس الزاوية: هو الشيخ محمد الصادق بن الحاج الطاهر بن بلقاسم بن الحسين بن منصور المشهور بالصادق بلحاج عند أهالي الأوراس وهو من عرش أولاد أيوب نسبا وأحمر خدو منشأ ولد عام 1792م ببلدة القصر بجبل أحمر خدو جنوب الأوراس. (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 99) تربى في أحضان أسرة تعتني بالجانب الديني فحافظ القرآن في سن مبكرة في قريته لقصر ومن أجل التزويد بالعلوم الدينية واللغوية قصد بلدة سيدي عقبة أين توجد زاوية برج بن عزوز؛ حيث تتلمذ على يد شيخها محمد بن عزوز وأخذ منه الطريقة الرحمانية (عثماني مسعود، 2008، ص 83) وكان كثير الحماس ومخلصا للطريقة الرحمانية لهذا أسس زاوية لها بقريته لقصر بوِصية من شيخه بن عزوز لتعليم القرآن والعلوم وكان لها تأثيرا كبيرا في نشر الوعي في الأوراس ومقاومة الغزاة المحتلين. (أبو القاسم سعد الله، 1980، ص 14)

عُرف بشخصيته الثورية التي يشهد عليها العدو قبل الصديق فقد جاء في أحد التقارير العسكرية الفرنسية ما يبرز شخصية هذا الرجل ومن بينها التقرير المؤرخ في 15 ديسمبر 1849م والذي جاء فيه "**في جبل أحمر خدو هناك رجل لابد من الحذر منه، إنه الصادق بن الحاج وهو مرابط من أولاد أيوب ومقدم إخوان سيدي عبد الرحمان**" (بوضرساية بوعزة، 1996، ص 56) كما قال عنه أيضا القائد الأعلى بالمنطقة باتنة عام 1852م في تقرير بخصوص الشيخ الصادق بلحاج "**إذا كان هناك شخص ينبغي أن لا نغفل عن تصرفاته، فهو سي صدوق بلحاج وهو مرابط من أولاد أيوب، ومقدم الإخوان في أولاد سي عبد الرحمان، ووريث سي عبد الحفيظ في جبل أحمر خدو ومنطقة جنوب الأوراس، وهو يترصد بنا، وسوف ينتهز الفرصة لتأليب السكان ودعوتهم إلى الجهاد**" (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 150) إضافة لذلك يصفه تقرير المكتب العربي ببسكرة عام 1857م بقوله "**ظهر بقسمة باتنة عام 1857م هذا الرجل**

الذي يحرض القبائل على مقاومة فرنسا والتمرد عليها، لقد أزعج فعلا المكاتب العربية الذين كشفوا في اتصالاتهم ودورياتهم لوضع نهاية له، انه مستعد لحمل الناس على الثورة في أي وقت يشاء". (فركوس صالح، 2010، ص 88، 89)

كان للشيخ من الأبناء تسعة وهم: إبراهيم والطاهر والغزالي ومصطفى من السيدة كلثوم من آل خلف الله من عرش أولاد أيوب، وعبد الباقي وحسان من السيدة عائشة من أبناء أت عمر أوعيسى، والبجاري والسقطي من السيدة مهنية بنت قديدة من بني يحمد من مشونش، وعبد القادر من سيدة من عائلة بوصابر من آل منصور القرابة، وقد قامت سلطات الفرنسية بتفتيت أسرته بعد صدور مرسوم الحالة المدنية حمل الألقاب لقب تيبرماسين لرفض حاكم منطقة آريس في قلب الأوراس اعتماد لقب أيوبي نسبة إلى أولاد أيوب نسب الشيخ الصادق بن الحاج باستثناء فرع واحد من نسل أبنه عبد القادر حمل لقب أيوبي وهذا يدخل ضمن سياسة الاحتلال في تشتيت العائلات والقبائل والأعراش في إطار سياسة فرق تسد. (كحول عباس، 2012، ص 118)

لقد كان الشيخ الصادق بلحاج رجلا تقيا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر مقاوما للاستعمار توفي في سجن الحراش عام 1862م عن عمر يناهز 70سنة. (جمعية أول نوفمبر، د.س، ص 189)

2 _ المعارك التي شاركت فيها زاوية الصادق بلحاج في مقاومة الاحتلال الفرنسي

1.2 _ معركة مشونش عام 1844م:

كانت معركة مشونش الواقعة يوم 15 مارس 1844م أول المعارك المباشرة التي شاركت فيها زاوية الصادق بلحاج إلى جانب خليفة الأمير عبد القادر محمد الصغير وكان على رأس المشاركين في هذه المعركة من زاوية الصادق بلحاج ابنه إبراهيم حيث أرسله أبوه لمشاركة سكان مشونش في حربهم ضد الاستعمار بعد احتلال مدينة بسكرة وقد تمركز بقواته في نواحي مركز مقدم الرحمانية في مشونش الشيخ محمد أمقران حيث دامت هذه المعركة يوما كاملا قاتل فيها إتباع الزاوية الصادق بلحاج ببسالة مما زاد في شعبية سي الصادق وابنه إبراهيم وداع صيتهما في الأوراس والزيبان (جمعية أول نوفمبر، د.س، ص 190) وعلى الرغم من وحشية الاحتلال في هذه المعركة إلا أن تكتل الرحمانيين مع خليفة الأمير عبد القادر في هذه المعركة لم يُمكن القوات الفرنسية من تحقيق أهدافها رغم الدمار الذي تعرضت له بلدة مشونش، وقد فقد الجيش الفرنسي في هذه المعركة العديد من جنوده وعلى رأسهم الضابط "برون" (Bron) بينما فقد المجاهدين أربعة عشر شهيدا (مياسي إبراهيم، 2003، ص 44)

2.2 _ معركة سريانة عام 1849م:

1.2.2 _ الظروف والأسباب: كانت ظروف وأسباب مشاركة زاوية الصادق بلحاج في هذه المعركة مرتبطا أساسا بمقاومة الزعاطشة ودعوة الشيخ بوزيان، حيث استجاب الشيخ الصادق بلحاج مقدم الزاوية رفقت الشيخ عبد الحفيظ مقدم الزاوية الرحمانية في خنقة سيدي ناجي لدعم الشيخ بوزيان في ثورته فقد تجاوبوا معه ولبوا نداءه للجهاد (صيد عبد الحليم، 2000، ص 56) فجمع الشيخ الصادق بلحاج من زاويته إتباعه وعدة مجاهدين من قريته خدو وتقدم لمؤازرة الشيخ بوزيان في ثورته؛ حيث نسق جهوده مع الشيخ عبد الحفيظ مما جعل وفود المقاومة تتدفق من عدة نواحي المنطقة لنصرة الزعاطشة (جمعية أول نوفمبر، د.س، ص 77) وبعد التنسيق والتخطيط بين زعماء الرحمانية

بالأوراس الشيخ عبد الحفيظ والشيخ الصادق بلحاج زحفت قواتهما لنصرة بوزيان لفك الحصار على واحة الزعاطشة (مياسي إبراهيم، 2005، ص 68)

صارت قواتهما باتجاه بسكرة وعندما وصلوا إلى واد براز قرب سريانة على بعد 20 كيلومتر عن بسكرة توقفوا للاستراحة والاستعداد قبل دخول بسكرة لفك الحصار ونصرة الشيخ بوزيان وأثناء توقفهم في واد براز استطاع الشيخان استنفار عدد كبيرا من المجاهدين والمتطوعين وما سهل عليهم ذلك كونهما قادا معركة سابقة في المنطقة سنة 1844م والمشهورة بمعركة مشونش (كحول عباس، 2012، 104)

2.2.2 _ وقائع ومجريات المعركة: وقعت هذه المعركة في يوم 17 سبتمبر 1849م واستمرت ليوم كاملا من الفجر صباحا إلى السادسة مساءا انتهت بانسحاب المجاهدين إلى الجبال المجاورة لواد براز قصد الاعتصام فيها ريثما ينظموا صفوفهم للاستعداد للهجوم مرة أخرى لفك الحصار على واحة الزعاطشة.

وللتوضيح مجريات هذه المعركة يجب العودة قليلا للوراء، فبعد قرار المجاهدين الاستراحة في واد براز قرب بلدة سريانة أرسلوا رسولا إلى الشيخ بلدة سيدي عقبة الباي بن شنوف يطلبون منه الانضمام إليهم لمحاربة العدو، ولكنه خانهم حيث أسرع إلى إخبار السلطات الفرنسية بكل شئ (مياسي إبراهيم، 2005، ص 60، 65)

بعد شرح ابن شنوف الأوضاع للضابط الفرنسي سان جرمان (San Grman) شارع مباشرة بجمع أعضاء قيادته وكل قواته وتوجه إلى موقع تواجد المجاهدين ليلا واستطاع أن يفرض الحصار عليهم بسهولة من كل جوانب، ومع مطلع الفجر بدأت المعركة حيث انهالت قوات الاحتلال على المجاهدين بوابل من الرصاص، غير أن ذلك لم يمنع المجاهدين من مقاومة الحصار المضرب عليهم بل تمكنوا أيضا من إلحاق أضرار كبيرة في صفوف العدو رغم الحصار، حيث قتلوا قائدهم الضابط سان جرمان والانسحاب بعد فك الحصار (الزبيري العربي، 1972، 60، 61)

3.2.2 _ نتائج المعركة: لقد اختلفت المصادر التاريخية في رصد نتائج هذه المعركة ولكن ما يثير فيها الدهشة تمكن المجاهدين من قتل قائد القوات الفرنسية الضابط سان جرمان رغم أنه كان على رأس فرقة عسكرية قدرت ب 300 جندي من المشاة و200 فارس و70 قناص و55 صبايحي وفكوا الحصار المضروب عليهم بعد قتلهم حوالي 100 جندي (شبلي شهرزاد، 2009، ص 64)

تميزت هذه المعركة بعد التكافؤ بين الطرفين مما دفع المجاهدين بالانسحاب بعدما حققوا الهدف المطلوب منها وهو فك الحصار، وقد استشهد منهم عدد كبيرا من إتباع زاوية الصادق بلحاج قدر عددهم بحوالي 200 شهيدا (مياسي إبراهيم، 2005، ص 60)

3 _ ثورة زاوية الصادق بلحاج بالأوراس (1858م-1859م)

1.3 _ قراءة في الأسباب والدوافع إعلان الثورة: كان لاندلاع هذه الثورة عدة أسباب ودوافع يمكننا اختصارها فيما يلي:

1.1.3 _ نتائج ثورة الزعاطشة عام 1849م: لقد كان للثورة الزعاطشة وما آلت إليها من الخسائر المادية وبشرية تأثيرا كبيرا على زاوية الصادق بلحاج التي زرع فيها شيخها الروح الانتقامية الجهادية وقد برز ذلك في خطاباته للناس؛ حيث دعاء فيها إلى الجهاد ضد الكفار الذين دخلوا أرض الإسلام بالقوة وقتلوا وشردوا وانتهكوا وسلبوا أموال وأعراض المسلمين بالقوة (عثماني مسعود، 2008، ص 84)

2.1.3 _ مكانة الزاوية في المنطقة: كان لزاوية الصادق بلحاج مكانة مرموقة في منطقة الأوراس وقد زادت شعبيتها أكثر بعد استشهاد الشيخ بوزيان قائد الثورة الزعاطشة عام 1849م ثم الشيخ عبد الحفيظ الخنفي عام 1852م وخليفة الأمير عبد القادر محمد الصغير عام 1856م، فاتجهت الأنظار إلى زاوية الصادق بلحاج وشيخها كوريث شرعي لمنصب شيخ الطريقة الرحمانية بالأوراس وانضم إليه جميع الإخوان والمجاهدين في المنطقة وهذا ما ساعده على القيام بالدعوة للمقاومة ضد الاحتلال (عزوي محمد الطاهر، 1886، ص 53)

3.1.3 _ سياسة فرنسا في المنطقة: حيث أصبحت فرنسا تتدخل في شؤون المنطقة بشكل مباشر بتطبيق سياستها وفرض سيادتها من خلال جباية الضرائب من حكور وعشور وزكاة وتنظيم القضاء والتعليم كإصدارها منشور سنة 1856م يلزم الزوايا والإخوان الخضوع للقياد وعملاء برئاسة الضباط المكاتب العربية (شرفي محمد، 1997، ص 249) فرفض الشيخ الصادق بلحاج الخضوع لهذا القانون رغم محاولة السلطات الفرنسية عدة مرات إقناعه بالتراجع عن فكرة عدم الخضوع لسياستها وأعطت له أدلة بمجموعة من المرابطين في المنطقة الذين قبلوا بالخضوع لسياستها أمثال سي إسماعيل و سي محمد بن بلقاسم وسي سعيد ولكلهم من إتباع الطريقة الرحمانية في الأوراس، إلا أنه رفض رفضا مطلقا الخضوع لها ولسياستها، فقامت بإرسال له في محاولة أخرى مبعوثين لإقناعه وهما: أحمد بن شنوف وسي سعيد، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 150، 151)

2.3 _ الدعوة إلى الجهاد: قام شيخ الزاوية الصادق بلحاج بمراسلة عدة قبائل وزوايا يحثهم على الجهاد والمشاركة في مقاومة العدو فانتشرت سمعته بين سكان الأوراس وازداد أنصاره ومكانة الزاوية خاصة بعد الدور الذي لعبه مع ابنه إبراهيم في الدعاية بإبراز مساوي الاستعمار الفرنسي (جمعية أول نوفمبر، د.س، ص 194) حيث انتشرت رسائله في مختلف أنحاء الأوراس ومنها الرسالة التي تم إرسالها إلى محمد بن عبد الصمد مقدم الطريقة الرحمانية القاطن قرب باتنة بتاريخ 26 نوفمبر 1858م يدعوه للجهاد قائلا **"إن الرومي يعمل ضد ديننا وضد صلاتنا وضد زكاتنا وضد حجنا، فتوحدوا وانهضوا ضد هذا الرومي من أجل حماية ديننا"** كما أرسل رسالة أخرى إلى أعراش قبيلة أولاد بوعون في يوم 09 ديسمبر 1858م يدعوهم للجهاد وجاء فيها ما يلي **"إلى الذين يتوكلون على الله سلام الله عليكم، أريد أن أطلعكم عما يحدث بديننا حافظوا عليه، إن الله يكون معينا وسيمدنا بالنصر، إن الله معنا لا ينبغي أن نخشى شيئا، إن الدين ملك لنا جميعا فكونوا شجعانا ومؤمنين أقوياء"** (فركوس صالح، 2007، ص 447)

لم يكتفي الشيخ الصادق بلحاج في دعوته للجهاد بمراسلة شيوخ القبائل والزوايا بل قام أيضا بعدة زيارات وتنقلات ميدانية إلى عدة نواحي من الأوراس مثل توجهه إلى أولاد بني سليمان والتوابة وبني ملول والبراجة ليدعوهم إلى الجهاد؛ حيث عقد معهم عدة اجتماعات حول موضوع الجهاد مثل اجتماعه في بني بوسليمان عند أولاد داود (كحول عباس، 2012، ص 124) كما قام بإرسال أولاده إبراهيم والطاهر إلى نواحي أخري مثل الزاب الشرقي ليدعوا إلى مناهضة الاستعمار، وقد نجح ابنه إبراهيم في هذه المهمة حينما دفع سكان قرية

سيدي عقبة في شهر نوفمبر 1858م إلى التمرد على الشيخ القرية الذي حاول القبض عليه فالتجأ إلى دار مقدم الإخوان الرحمانيين واعتصم بها إلى أن امتدت دعوته للتمرد من سيدي عقبة إلى قرية منعة شمالا (يحي بوعزيز، 2004، ص 133)

كانت لتحركات شيخ زاوية الصادق بلحاج وأبناؤه في الدعوة إلى الجهاد نجاحا كبيرا جعل ضباط المكاتب العربية في المنطقة يشعرون بالخطر مما دفعهم إلى إرسال عدة تقارير لسلطات الفرنسية وقد جاء في إحدى هذه التقارير الصادرة من قبل المكتب بسكرة ما يلي **"إن زاوية سي صدوق بأحمر خدو تحولت إلى ملجأ لكل الذين صوبوا ضرباتهم ضد فرنسا وهذا الرجل يستقطب كل يوم أنصار جدد وسلوكه محير بالنسبة لنا، أنه يشكل راية يلتف حولها كل ثائر عدو لفرنسا ومستعدا للثورة، أنه أصبح خطرا حقيقيا علينا"** (فركوس صالح، 2007، ص 87)

2.3– انطلاق الثورة وأهم مجرياتها : انطلقت الثورة في شهر ديسمبر 1858م إثر إعلان الشيخ الزاوية أنصاره على رفع الراية الجهاد ضد العدو في خطابه قائلا **"إلى الذين يتوكلون على الله، حافظوا على ديننا، إن الله سيصرنا، وإن خشيته وحده كفيلة بان تجلب لنا النصر، إن هذا هو الحق، اعملوا وكان ليس لكم أبناء تخافون أن تتركوهم من ورائكم أو ثروة تضع منكم"** وقد عرفت ثورته هذه ثلاث مواجهات مباشرة مع القوات الفرنسية (فركوس صالح، 1991، ص 103)

بدأت أول المواجهات العسكرية في هذه الثورة يوم 19 ديسمبر 1858م بمنطقة مشونش؛ حيث زحفت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديقو قائد منطقة باتنة بتنسيق ومساعدة الجنرال كاستو قائد منطقة بسكرة اتجه منطقة مشونش وبدعم من رجال القائد موهوب بن شنوف بدا الهجوم من قبل الفرنسيين وفق الخطة المتفق عليها من أجل القضاء على ثورة الصادق بلحاج في مهدها؛ حيث شنَّ الفرنسيين الهجوم على الثوار من الشمال الشرقي للأوراس في حين هاجمهم القائد أحمد بلحاج على رأس العمامرة والقائد سي مصطفي على رأس بني أوجانة باتجاه مزار وفورار أين تتمركز قوات المجاهدين للقضاء عليهم دفعة واحدة، ورغم الإمكانيات المحدودة لمجاهدين زاوية الصادق بلحاج مقارنة مع القوات الفرنسية التي جهزت فيلق يتألف تقريبا من 3000 جندي مسلح بالبنادق و400 جندي مسلح بالسيوف وفرقة مدفعية وكتيبة إسعاف إلا أن ذلك لم يمنع المجاهدين من مقاتلتهم ببسالة (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 156، 157) ونظرا لعدم التكافؤ بين الجيشان في هذه المعركة التي كانت فوق طاقة المجاهدين عددا وعدة اضطروا إلى الانسحاب نحو الجنوب وذلك بعد عدة مناوشات وجولات بين ثوار الصادق بلحاج والقوات الفرنسية.

تكرر الاشتباك المباشر بين القوتين مرة ثانية في يوم 10 جانفي 1859م بعدما انطلق الجنرال ديقو (Dego) من معسكره بشتمة (نواحي بسكرة) على رأس فيلق وفرقة مدفعية وكتيبة إسعاف ووقعة المعركة في منطقة يتنوجلين جنوب جبل خدو، وقد دام الاشتباك في هذه المعركة نصف يوم استشهد فيها عدد معتبر من المقاتلين الزاوية الصادق بلحاج، أما في صفوف العدو فقد قتل فيها 20 جندي فقط وهذا ما سمح للعدو بمواصلة زحفه نحو بلدة لقصر مقر قيادة زاوية الصادق بلحاج (Charle Féraud,1886, p 103, 105)

تجددت المواجهة للمرة الثالثة في يوم 13 جانفي 1859م في منطقة هنقلين التي تقع في الجنوب الشرقي من جبل أحمر خدو وتبعد عن قرية لقصر ب 15 كلم وكانت بداية هذه المعركة عند صباح الفجر واستمرت إلى آخر الليل وقد قاوم فيها الشيخ الصادق بلحاج وأبناؤه

وإتباعه بكل قواتهم رغم فارق العدة والعدد (صيد عبد الحليم، 2000، ص 57) فكانت الكفة في هذه المعركة لصالح الفرنسيين؛ حيث انسحب المقاتلين إلى الجبال المحيطة بقرية لقصر بعد أن خسروا عدد كبيرا من الرجال بسبب استعمال الفرنسيين في هذه المعركة المدافع (زوزو عبد الحميد، 2011، ص 157)

نظرا لتفوق القوات الفرنسية في مجال الأسلحة تمكنت من فرض سيطرتها في هذه المعركة مما دفع الشيخ الصادق بلحاج من الانسحاب بقواته المتبقية لتوجه إلى الجنوب تونس أين يوجد أتباع الأمير عبد القادر وأخوان الرحمانية بالجريد عند زاوية نفطة (يحي بوعزيز، 2004، ص 105)

حاول زعيم المقاومة مع رجاله في بداية الأمر بعد الهزيمة التوجه إلي النمامشة التي تعتبر البوابة للالتحاق بمنطقة الجريد التونسي، لكنهم قبل أن يصلوا تم محاصرتهم في وادي العرب من طرف عملاء فرنسا وأعيانها الذين نصبتهم لمراقبة تحركاتهم وعلى رأسهم محمد الطيب قايد منطقة سيدي عقبة وابن ناصر قايد منطقة ششار ليتم بذلك محاصرتهم في كمين و القبض عليهم (عثماني مسعود، 2008، ص 85) وكان السبب المباشر وراء القبض عليهم هو القايد ابن ناصر الذي أرسل لهم أحد ابتاعه من الخنقة سيدي ناجي ليكون مرشد لهم في طريقهم إلى منطقة الجريد التونسي إلا أنه بقي يراوغ فيهم إلى أن ضلوا الطريق لمدة طويلة كانت كافية حتى تمكن العدو من اللحاق بهم ليتم القبض عليهم في يوم 20 جانفي 1859م (يحي بوعزيز، 2004، ص 105)

3.3 _ نتائج الثورة

1.3.3 _ النتائج السلبية: لقد تركت ثورة زاوية الصادق بلحاج أثار وانعكاسات سلبية على الزاوية وبلدة لقصر وقبائل المنطقة يمكننا أن نحصرها في:

1.1.3.3 _ اعتقال ومحاكمة زعيم الثورة مع أفراد عائلته وأتباعه: فقد تم القبض على الشيخ الزاوية الصادق بلحاج مع أفراد عائلته و 88 مجاهدا من إتباعه يوم 20 جانفي 1859م وحكم عليهم في البدء الأمر بالإعدام جميعا يوم 26 أوت 1859م بمحكمة قسنطينة، ثم استأنف الحكم في شهر نوفمبر 1859م ومحتواه تخفيف الحكم من الإعدام إلى الأشغال الشاقة لمدة 15 سنة ضد زعيم الثورة و10 سنوات ضد بقية المتهمين (Charle Féraud,1886, p 106)

فبعد إعادة عرضهم أمام المحكمة العسكرية صدرت الأحكام التالية: الشيخ الصادق بلحاج وأبنائه (إبراهيم، الطاهر، الغزالي) حكم عليهم بالإعدام، غير أن نابليون خفف عليهم الحكم من الإعدام إلى السجن المؤبد؛ حيث نقل الشيخ الصادق إلى السجن الحراش بالجزائر وبقي فيه إلى أن توفي عام 1862م عن عمر يناهز 70سنة، أما فيما يخص أبناءه فقد نفي إبراهيم إلى كورسيكا وسجن فيها، وأما أخوه الطاهر نقل إلى سجن معسكر ثم حول إلى المغرب، أما الغزالي نقل إلى سجن شرشال وتوفي هناك سنة 1867م، أما بقية أتباعه تم الحكم عليهم بالسجن لمدة 10 سنوات لكل منهم (عثماني مسعود، 2008، ص 86)

2.1.3.3 _ انتهاج الاحتلال سياسة العقاب والانتقام من بلدة لقصر: حيث أمر الجنرال كاستو (Casto) بحرق بلدة لقصر وزاوية الصادق بلحاج وأولاد أيوب والاستيلاء على ممتلكاتها ومعاقبة الأهالي بإثقال كاهلهم بالضرائب الباهظة أي ما يعرف بضريبة الحرب (زوزو

عبد الحميد، 2011، ص 164) إضافة إلى ذلك مصادرة الأملاك بجمع الحيوانات من الغنم وبقر وبغال وخيول وكل المؤن والمدخرات وقد شارك في هذه العملية التخريبية اتباع بن شنوف (جمعية أول نوفمبر، د.س، ص 198)

3.1.3.3 _ تقسيم الأوراس الجنوبي إلى عدة قيادات : فقد قامت السلطة الفرنسية بتقسيم المنطقة من جديد ووزعت سلطة فيها على ثلاث قيادات وهي منطقة جبل ششار أخضعت لأحمد بن ناصر المتعاون مع العدو التابع لعائلة بن قانة، ومنطقة الزاب الشرقي أخضعت لأحمد باي بن شنوف التابع لعائلة بوعكاز، ومنطقة أحمر خدو لفرحات بن عبد الله التابع لعائلة بن قانة (كحول عباس، 2012، 138)

2.3.3 _ الانعكاسات الايجابية: كانت للثورة زاوية الصادق بلحاج عدة إيجابيات أهمها:

1.2.3.3 _ قيام ثورة بوخنتاش في الغرب الأوراس عام 1860م: لقد كان للدور الجهادي لزاوية الصادق بلحاج تأثيرا كبيرا على المنطقة وخارجها حيث دفعت إلى ظهور تمردات جديدة في الغرب الأوراس أين اندلعت ثورة جديدة في جبال الحضنة الشرقية بقيادة محمد بن بوخنتاش الذي ينتمي إلى أولاد سيدي رحاب أشراف أولاد دراج المعروفين بالبراكتية؛ فقد قام بثورة في شهر مارس 1860م ومن أهم معاركها معركة الخنق أم الحمام بنواحي مسيلة و هزموا فيها فرقة عسكرية فرنسية (يحي بوعزيز، 2009، ص 593، 595)

2.2.3.3 _ إعادة فتح الزاوية بتأسيس زاوية تيبرماسين عام 1872م: تأسست هذه الزاوية كوريثة لزاوية الصادق بلحاج بعد إطلاق سراح أبناءه إبراهيم والطاهر من السجن سنة 1872م ورغم رفض الاحتلال الترخيص لهما بفتح الزاوية من جديد في نفس المكان وبنفس الاسم خوفا من عودة روح المقاومة ورسالة العلم والجهاد قام أبناءه بتأسيس زاوية تيبرماسين التي تبعد عن مقر الزاوية القديمة في بلدة لقصر بحوالي 10 كلم فقط، أشرف عليها في بداية الأمر الشيخ الطاهر بن الصادق بلحاج وبعد وفاته سنة 1876م ترك شؤون الزاوية لأخيه الشيخ إبراهيم بن الصادق ومن بعده أخوهم مصطفى بن الصادق بلحاج (عثماني مسعود، 2008، ص 86)

استطاعت هذه الزاوية إعادة إحياء الدور الذي كانت تقوم به الزاوية القديمة وحسب الإحصائيات كان لزاوية تيبرماسين في سنة 1897م ألفين وأربع مئة وستة وسبعون من الإتباع ولها ثلاث زاويا فرعية تابعة لها وخمسة وعشرون طالبا وشيخا واحد وثلاثة عشر مقدم وقد تخرج منها محمد جار الله أمزيان مفجر ثورة الأوراس عام 1879م (كحول عباس، 2012، ص 82)

خاتمة:

بعد هذه الدراسة التي تناولنا فيها الدور الجهادي لزاوية الصادق بلحاج توصلنا إلى عدة استنتاجات أهمها:

_ أن الزوايا الرحمانية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية كانت مركزا للمقاومة والجهاد ونشر العلم والوعي القومي، ولم تكن مركزا للعبادة فقط ولهذا عملت السلطات الفرنسية منذ البداية على القضاء عليها.

_ أن زاوية الصادق بلحاج كانت من أشد القلاع المدافعة عن الحضارة الإسلامية ومقومات الأمة الجزائرية بصفة عامة وسكان الأوراس بصفة خاصة؛ حيث أظهرت للعيان مدى قوة مبادئها وشجاعة أتباعها الذين لم يستسلموا للعدو بل وقفوا وجه لوجه أمامه.

ـ أن زاوية الصادق بلحاج قامت بعمل بطولي في المنطقة الأوراس بعدما رفعت راية الجهاد ضد الاستعمار، وتحولت إلى قلعة للدفاع عن الحضارة الإسلامية بعدما شاركت في عدة معارك وساهمت في الكفاح الوطني.

ـ أن جهاد الزاوية الصادق بلحاج ضد الاستعمار كان تعبيرا صادقا عن رفض الغزاة وخطابات شيخها أصدق تعبيرا عن ذلك، ورغم فشلها في ثورتها والمساوي التي لحقت برجالها إلا أنها كانت المشغل للثورات التي جاءت بعدها في المنطقة وخير مثال على ذلك أن مفجر ثورة الأوراس عام 1879م هو خريج من هذه الزاوية.

قائمة المراجع:

الكتب:

1_ أبو القاسم سعد الله، (1980)، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى 16، ج1، الجزائر: الشركة الوطنية للطباعة والنشر.

2_ أبو القاسم سعد الله، (1992)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

3_ جمعية أول نوفمبر، (د.س)، تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال 1837م-1954م، باتنة: دار الشهاب.

4_ الزبيري العربي، (1972)، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الجزائر: الشركة الوطنية للكتاب.

5_ زوزو عبد الحميد، (2011)، الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية 1837م-1939م، ترجمة: مسعود حاج مسعود ، ج1، الجزائر: دار هومة.

6_ صيد عبد الحليم، (2000)، أبحاث في تاريخ زيبان وبسكرة، الجزائر: مطبعة سوف للطباعة والنشر.

7_ عثماني مسعود، (2008)، أوراس الكرامة أمجاد وانجاد، الجزائر: دار الهدي.

8_ فركوس صالح، (1991)، أصالة وتعريب مشروع فرنسا الصليبية والمجابهة الإسلامية، الجزائر: دار الكوثر للنشر.

9_ فركوس صالح، (2007)، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844م-1871م، الجزائر: منشورات جامعة عنابة.

10_ فركوس صالح، (2010)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1830م-1925م، الجزائر: مديرية النشر جامعة قالمة.

11_ مؤيد صلاح، (2002)، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، لبنان: دار البراق للطباعة والنشر.

12_ مياسي إبراهيم، (2005)، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، ج1، الجزائر: دار هومه.

13_ يحي بوعزيز، (2004)، ثورات الجزائر خلال القرنين 19م و20م، الجزائر: دار البحث للنشر.

14_ يحي بوعزيز، (2009)، موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب، ج2، الجزائر: دار الهدي.

الأطروحات:

15_ شبلي شهرزاد، (2009)، ثورة واحة العمري وعلاقتها بالمقاومة بمنطقة الزاب الغربي في القرن 19م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة لحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

16_ شرفي محمد، (1997م)، الطريقة الرحمانية ودورها في المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي 1830م-1881م، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة.

17_ كحول عباس، (2012)، دور الزاوية الرحمانية غي مقاومة الاحتلال الفرنسي بالزاب الشرقي 1849م-1859م، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ المعاصر، تخصص المقاومة الوطنية والثورة التحريرية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، الجزائر.

المقالات:

18_ بوضرساية بوعزة، (1996)، رموز مجهولة من زعماء المقاومة الشعبية، مجلة الرؤية، العدد2.

19_ عزوي محمد الطاهر، (1886)، مقاومة الأوراس خلال الاحتلال الفرنسي، مجلة التراث، العدد1، دار الشهاب ، باتنة.

20_ مياسي إبراهيم، (2003)، احتلال بسكرة 1844م، مجلة الخلدونية، العدد2.

21_ Charle Féraud, (1886), Note historique sur la province de Constantine, Revue Africaine, N°30.